ثانياً : المنهج فى العلوم الاجتماعية

obeikandl.com

obeikandl.com

الفلسفة والمفاهيم المنهجية للسانيات

دكتور الحسين الزاوى

قسم الفلسفة – جامعة وهران – الجزائر

إن اشكالية المنهج هى من المواضيع المحورية فى مجال الدراسات العلمية فى الحقبة المعاصرة ، سواء تعلق الأمر بالفلسفة والعلوم الإنسانية أو بالعلوم الطبيعية والدقيقة، لكن المكانة التى يحتلها المنهج تختلف باختلاف العلوم والاختصاصات وبتعدد سياقات البحث النظرى والتطبيقى . فهناك فروع معرفية يتمحور عملها بشكل كبير حول مسألة المنهج حتى يتماهى المنهج مع الموضوع المدروس ، وهناك فى المقابل أبحاث يتحول فيها المنهج إلى مجرد مقولات ومفاهيم إجرائية ذات طابع تقنى .

ومهما كان نوع الاختصاص ومجال المعرفة ، فإن المنهج لا يمثل بأى حال من الأحوال جملة من الصيغ والقوالب الجاهزة التى يمكن تطبيقها بأسلوب مباشر وتلقائى أو تحت الطلب ، وكأنه وصفة سحرية يتم اتباع توصياتها من أجل الوصول إلى إيجاد الحلول المستعصية . فالمنهج كما هو متعارف عليه عبارة عن محصلة تقودنا إليها سيرورة وعملية البحث المضنى ، التى يعمل مختلف الاختصاصيين على بلورتها وفق ما تتطلبه مجالاتهم المعرفية ، إنه يشكل الشعلة والمنارة الهادية لكل عمل علمى أو فلسفى ؛ كما يمثل فى اللحظة ذاتها نقطة الانعتاق والوصول، والخلاصة النهائية لكل مجهود يتصل بعملية البحث والإبداع .

ويمكن القول أن المنهج بصيغة المفرد هو بالمعنى الفلسفى وكذلك بالمعنى العام للفظ، ما يمكن أن ينشأ عن مجموع العمليات الفكرية التى يسعى من خلالها فرع أو اختصاص من أجل الوصول إلى الحقائق التى يتعقبها ويبحث عنها، للبرهنة عليها والتحقق منها . وهذا التصور الخاص بالمنهج ، يسمح بتشكيل مجموعة من القواعد المستقلة عن متن البحث أو مضامينه الخاصة ، إن الأمر يتعلق بوجهات نظر فلسفية تسعى إلى تحديد موقف خاص بالذهن البشرى فى مواجهته للموضوع [1].

---

(1) انظر :

Madeleine Grawitz: Méthodes des sciences sociales ED: DALLOZ. 11e édition, Paris 2001, p. 351.

كما أن المنهج الذى هو فى الأصل عبارة عن مقولة ذات طابع عام، يختزل ويتضمن فى عمقه الداخلى جملة من المفاهيم المحايثة التى لها القدرة النظرية والمعرفية على دعمه ومؤازرته ، مثل مفاهيم التقنية والمقاربة والإستراتيجية ، فالتقنية على سبيل المثال وهى فى ذلك : «.. مثل المنهج ، إجابة على سؤال «كيف؟». إنها وسيلة لتحقيق هدف ما ، ولكنه هدف يتموقع على مستوى الوقائع أو المراحل التطبيقية [2]» ، لذلك فإنه ومن أجل تحقيق أكبر قدر من النجاعة ، وحتى يكون بالامكان استعمال التقنيات بشكل فعال، من الواجب علينا معرفة محتوى المناهج التى تستعمل وتوظف تلك التقنيات وتعمل على الربط فيما بينها، كما يفترض أن تكون لدينا معرفة واعية بأهداف تلك المناهج ومقاصدها أى إطلاع واضح على العلوم التى تعتبر تلك المناهج جزءا منها ، وكذلك على المجالات التى سوف نطبق عليها تلك المناهج[3] ذلك أن كل تأسيس للمنهج هو إعادة جديدة لتشكيل محاور وسياقات الموضوع المدروس ، ويمكن القول بالتالى أنه بناء جديد للموضوع .

إن ا لمنهج يرتبط من ناحية أخرى بالنظرية والنسق أو بالأنساق الفكرية المختلفة، حيث أن مقولة المنهج ترتبط فى بعض الأحيان بنظريات علمية وفلسفية، إلى درجة يكون فيها من الصعب التفريق بين عناصر المنهج ومحتوى النظرية أو بين مفاهيم المنهج والإطار النسقى الذى يحيط بها وهذه المعطيات الابستيمولوجية المختلفة تدفعنا إلى توخى الكثير من الحذر حينما نعمل على بلورة الحقل المعرفى الذى نطمح إلى إعادة تشكيله وفق الأطر المنهجية المتوفرة لدينا . فالنظريات والمناهج تحمل عمرا افتراضيا جدُّ محدود وهو ما يجعلها معرضة للتلف وغير قابلة للتوظيف فى سياق نظرية جديدة أو مستجدة ، يقول فريباند P. Feyerabend ،إذا جئنا الآن إلى (مسألة) الإبتكار، وتشكيل واستعمال النظريات المتعارضة ليس فقط مع نظريات أخرى ولكن كذلك مع التجارب، والوقائع ، والملاحظات ، يمكننا أن ندفع إلى ملاحظة ، وبشكل فورى ، أنه ولا واحدة من (النظريات) تنسجم مع كل الوقائع المعروفة فى مجالها . وهذه الصعوبة ليست مفتعلة أو ناتجة عن تفريط منهجى. إنها

---

(2) Ibid., p.p., 352-353.
(3) Ibid., p. 354.

مرتبطة بتجارب وقياسات فى غاية الدقة وجد مؤكدة» [4].

فالبعد النسبى والمؤقت للنظريات والمناهج ، يدفع من الناحية المعرفية إلى عدم الثقة المفرطة فى جدوى وإجرائية الأدوات المنهجية التى نعمل على توظيفها فى مختلف الاختصاصات . لكن تلك النسبية لا يفترض فيها أن تؤدى إلى انعدام الثقة فى المنهج ومن ثمة إلى رفضه جملة وتفصيلا، الأمر الذى يمكن أن تنجر عنه جملة من التسويفات التنظيرية التى تفتقد إلى الحد الأدنى من الضوابط وتسمح بتبلور وانبثاق كل الممارسات الشاذة داخل سياقات البحث المعرفى المختلفة.

إن الفلسفة عرفت منذ بدايات نشأتها الأولى عددا من الممارسات والتنظيرات المنهجية المتعددة التى كانت تستند على مشاريع فكرية خاصة بكل فيلسوف من الفلاسفة من أصحاب الأنساق الكبرى، ومن الأشياء المميزة لهذة المنهجية الفلسفية، هو كونها كانت عبارة عن إيداعات نصية تستند فى مجملها على مقولات ومفاهيم محورية تحمل دلالات معرفية فى غاية الغنى وقادرة على التأقلم مع السياقات والمجالات التى توظف فيها ، كما تستجيب فى اللحظة نفسها للطموحات النظرية الخاصة بكل فيلسوف ، لكن المقولات المنهجية للفلاسفة ، وإن كانت تتقاطع فى كثير من الأحيان على المستوى اللفظى، فإنها تميزت بقدرتها على تأكيد هوياتها المتفردة والمستقلة .

وحينما نتعامل مع الخطاب الفلسفى المعاصر المتميز بافتتانه بالتفكير اللغوى، يمكننا أن نلاحظ بكل يسر أن المفاهيم المنهجية للسانيات تتميز بحضور مؤثر ولافت داخل هذا الخطاب ، بل أن المفاهيم اللسانية كثيرا ما تمارس نوعا من الهيمنة حتى على تلك المقولات الفلسفية التى كانت تسهم فى بلورة طبيعية الخطاب الفلسفى، وهذا الدور المقولاتى Catégorielle الذى تمارسه مفاهيم اللسانيات خاصة البنيوية منها مكنها من جعل هذا الخطاب أكثر انفتاحا على باقى العلوم خاصة الإنسانية منها بعد

---

(4) Paul Feyerabend: Contre la méthode- Esquisse d'une théorie anarchiste de la connaissance ed. Du seuil. Pour la traduction française, Paris 1979, p. 55.

أن بدأ يعرف حالة من التقوقع والانعزال مع انحصار وتراجع مجالات تأثيره .

ويمكن القول أن : «اللسانيات البنيوية استندت على مفاهيم وإجراءات فى غاية العمومية (استبدالات ، تنظيمات ، مستوى التحليل ...) ، وذلك هو جعلها قابلة للتصدير، بكل سهولة» [5] . فمفاهيم اللسانيات ، تميزت بقدرة هائلة على اختراق مجالات معرفية متعددة وذلك بفضل شحنتها المعرفية الغنية من جهة وبفضل استقلاليتها المنهجية من جهة أخرى ، الأمر الذى سمح لها بالحصول على قدرة هائلة على التحرك المؤثر والفعال فى الحقول والمجالات التى تستدعى إليها من أجل المشاركة فى التحليل المنهجى للاشكاليات المطروحة . لكن ذلك لا يعنى أبداً أن مختلف المفاهيم اللسانية هى مفاهيم جديدة كل الجدة بالنسبة للخطاب الفلسفى فقد وجدت الكثير من تلك المفاهيم ووظفت باعتبارها تشكل جزءا من المعجم الخاص باختصاص الفلسفة ، وبالتالى فإن عنصر الجدة الأساسى الذى تحمله مفاهيم اللسانيات يكمن فى كونها استطاعت أن تلج عتبة النصوص الفلسفية وهى حائزة على دلالات ابستيمولوجية لم يألفها النص الفلسى من قبل .

وهذا التوظيف المفاهيمى ، ولنقل المعرفى ، المرتبط بحقل اللسانيات لا يعنى أن الخطاب الفلسفى قد فقد استقلاليته ، حيث أنه وبالنسبة لكل علم أو اختصاص معرفى فإن الحصول على الاستقلالية يعنى فى اللحظة ذاتها ، التحرر من كل الاكراهات والقيود وكذا القدرة على توظيف واستعمال المعارف الأخرى المتاحة والمتوفرة، غير أن أى علم أو اختصاص لا يمكنه أن يستعير من فرع معرفى مغاير إلا إذا كان هو ذاته حائزا على استقلاليته سواء على مستوى منهجه أو على نطاق حقله ونشاطه النظرى والعملى [6] لأن كل فرع معرفى يتوفر فى نسقه العام على حد أدنى من القواعد التى تسمح بعملية تراكم المعرفة داخله ومثل تلك الضوابط تجعله قادرا كذلك على التأثير فى باقى الاختصاصات ومن ثمة فإن تلك الشروط الخاصة بفعل المعرفة الإنسانى ، أصبحت فى الوقت الحالى ، خاصة مع التعدد الهائل للمعارف، تحمل أهمية كبيرة وفى غاية الحيوية بالنسبة لمجريات البحث، وهذا ما دفع

---

(5) Madeline Grawitz; op.cit., p. 326.
(6) Ibid., p. 90.

«شومسكي» إلى القول : «لو لم تكن هناك تحديدات جادة لنمط المعارف الممكن ، لما حصلنا قط على معرفة واسعة المدى مثل اللغة . وذلك لسبب بسيط هو أننا نستطيع ، بدون هذه التحديدات ، الحصول على عدد هائل من المعارف الممكنة، كلها منسجمة مع معطيات التجربة ، الشئ الذى ينتهى إلى جعل تطور هذه المعارف مستحيلا....» (7).

وانسجاما مع الروح الفلسفية التى تأسست عبر قرون من الابداع النظرى استطاعت المفاهيم اللسانية انطلاقا من البعد المنهجى والاجرائى الذى تتوفر عليه أن تسهم فى بلورة الخطاب الفلسفى الذى أصبح أكثر حرصاً على الفهم والمتابعة بعد أن كان يحمل طموحات ، فاقت فى اتساعها مجموع امكانياته النظرية .

ومن المفاهيم التى كانت لها خطوة خاصة داخل السياق الفلسفى نجد مفهوم التزامن Synchronie ، الذى أثر على مجالات معرفية متعددة مرتبطة بالعلوم الإنسانية المعاصرة ، فقد نتج عن التمثيل الإبداعى لمفهوم التزامن ميلاد تصور جديد للتاريخ ، مخالف لذلك التصور التقليدى الذى دأب على تأكيده مختلف الباحثين الذين كانوا يركزون على المساق الخطى المتتابع للتطورات التاريخية وهو تصور ينسجم مع الرؤية التى بلورها البحث اللغوى التاريخى والدراسات الفيلولوجية وهو كذلك الواقع الذى جاءت اللسانيات البنيوية من أجل تجاوزه ، لأن «... الوصف اللغوى وتعميم المعطيات اللغوية لا يصبح ممكنا إلا حين نفصل بين الحالة الآنية والراهنة للغة وبين نشوء اللغة وتطورها وتحولاتها . بل لا يمكننا ، فى الواقع، وضع منهجية تحليلية لدراسة اللغة وتحديد عناصر هذه الدراسة ما لم ننطلق من وصف اللغة فى واقعها المعاصر» (8).

والمفهوم المتقطع للتاريخ كما بلوره الاتجاه البنيوى ووضع أسسه المعرفية، «مشال فوكو» ينسجم إلى حد بعيد مع الروح النسقية ، التى أكدت منذ «دى سوسور» De Saussure على أن اللغة نسق من العلامات الاعتباطية لأن

---

(7) نعام شومسكى : مجلة بيت الحكمة – عدد خاص – العدد السادس – السنة الثانية ، المغرب، أكتوبر 1987 ، ص36 .

(8) ميشال زكريا : الألسنية (علم اللغة الحديث) المبادئ والأعلام – المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت .

التاريخ الإنسانى ليس محصلة تطور متواصل دون ا نقطاع أو تقطع ، إنه عبارة عن أنساق متعددة ومتقطعة تمثل أنظمة معرفية تختلف باختلاف العصور، وهذه «الابستيميات» لا تمثل نسيجا موحدا ومنسجما ، ويصدق ذلك على كل المجالات سواء تعلق الأمر بالتاريخ أو اللغة : «التى لا تتغير كثيراً - (كما يؤكد ذلك فوكو) - بعوامل الهجرة والتجارة والحروب ، (...) ، بل تتغير حسب شروط متعلقة حصرا بالأشكال الصوتية والنحوية التى تتكون فيها اللغة (....) ؛ وما عادت اللغة تحمل آثار ما قبل «بابل» أو الصرخات البدائية التى قد تكون دوّت فى أرجاء الغابات؛ بل تحمل شارات نسبها الخاص . ولم يعد للكائن الحى تاريخ : أو يجد نفسه بالأحرى ، من حيث هو ينطق ويعمل ويعيش ، متشابكا ، فى كينونته الذاتية، مع تواريخ لا تخضع له ولا تتجانس معه ، لأن الحيز الذى كانت تملأه المعرفة الكلاسيكية دون تقطع قد تجزأ....» [9] . ومع ذلك فإن «فوكو» M. Foucault لم يكن بإمكانه أن يزيح كل فكرة ترتبط بالتطور والتحول ، إنه يرفض فقط أن نرى فى المعرفة الإنسانية عموما وفى لتاريخ واللغة ، بشكل خاص ، استمرارية خطية بدون وجود امكانية للتوقف أو الإنقطاع وحتى القطيعة . أى محاولة للشروع فى إقامة تأسيسات من نوع جديد ونفس الشئ يمكن أن نردده بصدد التصور «السوسورى» الخاص بثنائية dichotomie التزامن والتعاقب التى لا تنفى اطلاقا الجانب الاجتماعى والتاريخ الخاص برؤية «دى سوسور» للسانيات باعتبارها دراسة تزامنية : «ولكن بشرط أن نفكر فى التعارض ما بين التزامنى Synchronie والتعاقبى diachronie على المستوى النظرى، وأن لا نتعامل معه كمجرد أداة منهجية ، الأمر الذى يجعلنا لا نرى بعد ذلك التناقض بين هذه الأطروحات . وبإبطاله للسانيات التاريخية ، فإن سوسور Saussure لم يطرد المجتمع والتاريخ من اللسانيات لسبب بسيط وهو أن اللسان لكونه نسقاً من القيم ، وبوصفه اعتباطيا بشكل محض ليس سوى الشكل الآخر للتعريف الخاص باللسان باعتباره اجتماعيا وتاريخيا بصورة جذرية» [10] .

---

(9) ميشال فوكو : الكلمات والأشياء - مركز الانماء القومى - بيروت - 1989 - 1990 .

(10) CNORMAND et autres "Avant Saussure - chois de textes (1875- 1924) - Article de : Jean - Louis - Coll: "dialectiques" - Ed: Complexe - Bruxelles 1978.

ولكننا إذا انطلقنا من فرضية أن السياق المنهجى لعلم اللغة جزء لا يتجزء من المستوى النظرى لهذا الفرع المعرفى ، فإن الموقف العام من الثنائيات السوسورية يتحدد انطلاقا من الاعتبارات الاجرائية للدراسة اللسانية ذات التوجه النسقى والتزامنى، لأن المفاهيم التى توظفها ليست فقط جزءا من المنهجية الجديدة ولكنها تمثل أساس هذه المنهجية وتشكل قاعدتها المعرفية والنظرية .

لذلك فإن مفهوم النسق كما بلورته اللسانيات جعل من اللغة نظاما يحدد المستويات الأداتية والاستعمالية للغة التى يتعامل معها المتكلم ، وهنا نكون شديدى القرب من مفهوم موت الإنسان الذى يشير إليه «فوكو» ويرمز له من خلال تجليات الذات المغفلة التى تخضع لإكراهات النسق . وتزاح بذلك الذات عن المركز ، بعد أن ظلت تهيمن على الأفق الفلسفى وترخى بظلالها على كل مجالات التأمل النظرى، ليطفو مفهوم جديد للإنسان يحمل معنى الإنسان الأعلى الذى يتحدد انطلاقا من علاقات القوى ويتبلور انطلاقا من صراع السلط، إنه كما يقول «جيل دولوز» G. Deleuze فى قراءته لفكر «فوكو» : «الإنسان محملا بمادية اللغة («بتلك المنطقة الغامضة البكماء الصامتة الخالية من المعنى ، حيث تستطيع اللغة أن تتحرر حتى مما يكون عليها أن تقوله») إن الإنسان الأعلى فى منظور «فوكو» ، أقل كثيرا من أن يكون اختفاء أو أفولاً للناس الموجودين ، وأكثر كثيراً من انقلاب فى التصور، تصور الإنسان : إنه بزوغ شكل جديد، غير الله والإنسان ، وثمة أمل فى ألا يكون أسوأ من الشكلين السابقين» (11).

وبذلك فقد استطاع النسق بمعناه اللسانى أن يتجاوز مجمل المعانى التقليدية لمفهوم النسق فى الخطاب الفلسفى ويدشن لأسلوب منهجى جديد فى توليد الأفكار وبلورة التصورات .

ومثلما أن مفهوم التزامنى أو الآنى كان يحمل فى طياته مفهوم النسق «السوسورى» فإنه تضمن بشكل جنينى مفهوم البنية الذى كان له حضور قوى على الساحة المعرفية سواء فى الفلسفة أو فى سياق ما أصبح يسمى بالعلوم الإنسانية مثلما

---

(11) جيل دلوز : المعرفة والسلطة – مدخل لقراءة فوكو – ترجمة : سالم يفوت – المركز الثقافى العربى ، بيروت ، الدار البيضاء – ط1 ، 1987 – ص 147 .

هو الحال عليه فى الأنتروبولوجيا بشكل خاص ، وقد مثل هذا المفهوم بالإضافة إلى المفاهيم اللسانية الأخرى ، العمق «الاستراتيجى» وأساس الهوية النظرية وسند المشروعية بالنسبة للسانيات البنيوية ، خاصة وأن «اللسانيات مدينة بعلة وجودها للمنهج أكثر مما هى مدينة للموضوع ..» [12]، وبالرغم من ذلك فإن الموضوع اللسانى والمتمثل فى اللغة بأبعادها المختلفة هو الذى سمح لمفهوم التزامنى أو الآنى أن يتطور ويتشكل فى سياقات معرفية متعددة تتخذ كأفق لها النظرة البنيوية للأشياء؛ يقول «عبدالسلام المسدى» : «ونفهم الآن بعد الإلمام بخبايا الشبكة المعرفية فى نشأة الفكر اللسانى المعاصر كيف تعاظمت مقومّات النشأة فى تواؤم البنيوية بمقولة الآنية: «فالمحور المركزى لهذه ا لمصاهرة هو البحث اللغوى بلا منازع، ومعلوم أن من محركاته المعرفية تعريف سوسير للغة بأنها كل يقوم على ظواهر مترابطة العناصر ماهية كل عنصر وقف على بقية العناصر بحيث لا يتحدد أحدها إلا بعلاقته بالعناصر الأخرى ....» [13].

وهذا التصور للظواهر والأحداث والتجليات الثقافية والمعرفية بوصفها بنيات، سمح ببروز وتبلور التصور «الفوكوى» لمفهوم «الابستيمى» ، بوصفه نظاماً معرفياً، يميز كل حقبة تاريخية وهو ما يتعين علينا اكتشافه بتوظيفنا لتقنية التنقيب والحفر على موضوع من نوع خاص هو موضوع المعرفة ، ويمكن القول أن كل نظام معرفى يتوفر بالنسبة «لفوكو» على خاصية التناسق والإنتظام التى تميز عناصره المختلفة، سواء تعلق الأمر بمستويات المعرفة النظرية أو التطبيقية .

لذلك يمكن القول أن المسألة المحورية المرتبطة بتأكيد الطابع المنهجى لمفاهيم اللسانيات لا تتمثل فى إسناد طاقة أو قدرات خارقة لعلم اللغة أو للبحث اللغوى، بشكل عام، وإنما الهدف المعرفى لمثل هذا التأكيد يؤطره الطموح المعرفى المشروع فى إثارة الإهتمام مرة أخرى نحو الطابع الاستثنائى والخاص للظاهرة اللغوية فى أى بحث يرتبط بالفلسفة أو العلوم المختلفة وهى

---

(12) عبدالسلام المسدى : اللسانيات وأسسها المعرفية – الدار التونسية للنشر – تونس – المؤسسة الوطنية للكتاب – الجزائزر – أوت 1986 ص 109 .
(13) المرجع نفسه ، ص 127 .

النقطة التى ألح عليه هيلمسليفL. Hjelmselv بقوله أن : «كل علم يتخذ كهدف له العمل على تأسيس منهج نستطيع بواسطته وصف مواضيع متفرقة ، تحمل طبيعة محددة . ويتم ذلك دائما من خلال إدخال لغة تسمح ، بوصف تلك المواضيع المعنية.....» (14).

ويعتبر مفهومى التضمين Connotation والتعيين Dénotation من المفاهيم الأساسية المشتركة بين حقلى اللسانيات والفلسفية ، ورغم أنهما يستعملان فى الفلسفة منذ مدة طويلة فإن البصمة اللسانية حاضرة فى الاستعمال المعاصر للمفهومين فى الخطاب الفلسفى ، فالفلسفة التحليلية على سبيل المثال دأبت على استعمال المفهومين بحمولة معرفية قريبة من الحمولة التى نجدها فى الدرس اللسانى، خاصة إذا ما استثنينا المعنى الاصطلاحى الخاص الذى أراد اللسانى الدانماركى «هيلمسليف» أن يقدمه للمفهومين تماشيا مع الصيغة الشكلية الصارمة للدراسة اللسانية التى عمل على بلورتها فى أبحاثه المختلفة فى سياق رؤيته المتميزة لطبيعة اللسانيات التى أسماها بـGlossématique .

والفرق الواضح ما بين تصور فلاسفة اللغة المنتيمن للمدرسة التحليلية واللسانيين خاصة المتأثرين بتحديد «دى سوسور» لطبيعة العلامة اللغوية ، يعود إلى أن التقليد «الأنجلو – ساكسونى» بقى وفيا لمنطلقاته النظرية التجريبية والحسية التى تجعل العلامة ذات صلة مباشرة بالموضوع أو المرجع سواء على مستوى إمكانية تحقق الدلالة بالنسبة للبعض منهم مثل «راسل» Russell أو على مستوى الحكم على قضية ما بالصدق أو الكذب مثل «فريج» Frege ، وهذا هو السبب الذى جعل من التعارض بين مفهومى التضمين والتعيين ، يأخذ شكل تعارض من نوع آخر لدى الفلاسفة التحليليين وبعض المناطقة ، حيث يتحدث الكثير منهم عن القصد المباشر من جهة وعن الماصدق والامتداد من جهة أخرى Extension/intention وبتعبير آخر كما يشير إلى ذلك «أمبرتو إيكو» U.ECO ، فإن التضمين يحدد بالنسبة إليهم الاستعمال التعيينى dénotatif أو المرجعى الممكن لتعبير ما (انظر كارناب Carnap 1995)

---

(14) Louis HJELMSLEV: Le Langage - traduit du danois par Michel OLSEN - Ed: de Minui Paris 1966, p. 175.

ويمكن أن نوسع القائمة نحو أزواج مرادفة مثل تعيين / مدلول عند (1905) Russell ، مرجع Referent إحالة أو إرجاع référence عند «أوجدن» و «ريتشاردز» Ogden et Richards (1923) ، ما صدق extension وفهم Compréhension بالنسبة لمنطق بور – رويال Port - Royal [15] .

أما بالنسبة للتقليد الفلسفى الأوروبى فقد بقى وفيا فى مجمله للمنطلقات النظرية التى أرسى دعائمها «سوسور» ، وهو الموقف ذات الذى يتبناه «ايكو» ECO من خلال تأكيده على أن «اللسانى لا يهتم» فى واقع الأمر ، بالعلاقات ما بين العلامة ومرجعها الموضوعى الممكن ، لأنه (يعتنى) بالبناء الداخلى للعلامة ، وبقدرتها الدلالية ، بالاضافة إلى العلاقة الموجودة ما بين الدال والمدلول» [16] .

لذلك فإن الكثير من التوجهات الفلسفية الأوروبية اهتمت بشكل كبير بمفهوم التضمين Connotation وقامت بتوظيفه على نطاق واسع خاصة من أجل تأصيل وتأكيد العلاقة بين الاشكاليات الفلسفية والمفاهيم ذات العلاقة بميادين التحليل النفسى و «الأنثروبولوجيا» و «السوسيولوجيا» ، على اعتبار أن المعانى التى تحيل إليها المفاهيم بشكل ضمنى هى أكثر أهمية لسياقات البحث المختلفة من المعانى المباشرة التى تحجب عنها جوانب فى غاية الغنى بالنسبة للمعرفة الأنسانية .

وتأثير المفاهيم المنهجية لم يتوقف عند هذا الحد فهناك مفاهيم أخرى فاعلة على الساحة الأدبية والفلسفية مثل مفهوم علاقات التتابع Syntagmatique وعلاقات الاستبدال أو الترابطparadigmatique ، حيث تمثل العلاقات الأولى محور الحضور وتمثل العلاقات الثانية محور الغياب ، الذى يعتبر محورا أساسياً لكونه يسهم فى الاختيار الضمنى للكلمات وفى تحديد معنى الجمل الحاضرة عبر المحور الأول ، وهذا التصور الذى يبلوره المحوران يساعد كثيرا على توجيه البحث على اختلاف مواضيعه نحو محور الغياب الذى يمثل عالم الممكنات الزاخر بالمفاجآت المعرفية .

وقد استطاع من جهة أخرى ، أن يحقق التعارض ما بين مفهومى ، اللسان

---

(15) UMBERTO ECO: Le signe - histoire et analyse d'un concept traduit par Jean - Marie KLINKENBERG - Ed: LABOR BRUXELLES - 1988., p. 122.

(16) Ibid., p. 123.

والكلام، نتائج نظرية متعددة يمكن أن نتلمس أثرها عند أكثر من فيلسوف وباحث، «فرلان بارث» Roland Barthes يشير إلى التأثير الذى مارسه «دى سوسور» على أحد الفلاسفة الفرنسيين وهو «ميرلوبونتى» Ponty Merleau وهو ما يبرز بشكل جلى من خلال قيام هذا الأخير بتأسيس تعارض جديد ، يماثل الثنائية «السوسورية» الموجودة ما بين اللسان والكلام ، وذلك ما بين ما يسميه بالكلام المتكلِّم والكلام المتكلَم كما أن ثنائية «دى سوسور» استطاعت أن تؤدى إلى ميلاد مفهومين لعبا دورا إجرائيا هاماً فى مجالات الدراسة التاريخية والعلوم الإنسانية عموما ويشار إليها من خلال الزوج : حدث / بنية .

كما أن «كلود ليفى ستراوس» C.Levi-Strauss ، كان من بين المتأثرين إلى حد بعيد بالبعد اللسانى المعاصر ، ويمكن أن نبرهن على ذلك بكل سهولة نظرا للأسس اللسانية للكثير من جوانب منهجه البنيوى ؛ ونذكر فى هذا السياق على سبيل المثال لا الحصر ، التعارض الذى وصفه فى الكثير من أبحاثه ما بين مفهومى السيرورة والنسق .

وحينما نتحدث عن الثنائيات Dichotomies أو الأزواج المفاهيمية فى سياق اللسانيات والعلوم الإنسانية ، فإن تداعيات الموضوع تدعونا للإشارة إلى أن البحث الفلسفى استطاع أن ينجز منذ مراحل نشأته الأولى، جملة من الثنائيات الهامة التى كان لها الفضل فى تقدم المعرفة الإنسانية فى مختلف المجالات ، لذلك فليس غريبا أن يستعير البحث الفلسفى بعض المفاهيم اللسانية من أجل أن يبلور خطاباته ويجعلها أكثر انفتاحا على مقتضيات العصر وأكثر قدرة على تلبية الاحتياجات المنهجية للبحث المعاصر . وحتى الذين انتقدوا المنطلقات النظرية للسانيات واعتبروها جزءا من الميتافزيقا الغربية ، مثلما هو الشأن بالنسبة «لجاك دريدا» Jacques Derrida ، فإنهم لم يستطعوا تأسيس آرائهم إلا انطلاقا من تلك الثنائيات السوسورية ، فنظرية أو علم الكتابة De la grammatologie استندت على التعارض الموجود ما بين الدال والمدلول ، وعلى رفض الكتابة الصوتية التى تحدث عنها «دى سوسور» من أجل أن يخرج الكتابة من سياق اللسانيات ويحقق لهذه الأخيرة علميتها من خلال تجسيد طابعها النسقى المنظم فى سياق بنية مغلقة . وبالتالى فإن الفهم «السوسورى» للكتابة،

الذى يتعامل معها كشئ ملحق يسهم فقط فى تمثيل العناصر الصوتية للغة، يؤدى إلى جعلها موضوعا ليست له علاقة بالتركيب وبالنظام الداخلى للغة، وكأن الكتابة تمارس دورا مجازيا وتصويريا [17]. وهو ما رفضه جاك دريدا ، خاصة وأن «فكرة المؤسسة فى حد ذاتها – ومن ثمة إعتباطية العلامة – لا يمكن التفكير فيهما قبل وجود إمكانيات للكتابة وخارج أفقها [18]. لذلك فإن «دريدا» يتحدث عن دال من نوع مغاير هو الدال المنقوش بواسطة فعل الكتابة ، وبذلك يلجأ إلى هدم أحد أهم المرتكزات «السوسورية» التى ينبنى عليها مفهوم العلامة البنيوى، من خلال العمل على تفكيك فكرة العلامة فى حد ذاتها لأن «دريدا» يريد أن يتجاوز التناقض الموجود بين الكتابة والكلام ولا يرفض كليا الدال كصوت إنه يريد فقط أن يجرده من سلطته المطلقة التى حاز عليها طيلة قرون من الهيمنة التى أهملت دراسة الأثر الأنطولوجى فى أبعاده الزاخرة والغنية ، وهكذا فهو يسعى إلى تقويض التمركز الصوتى حتى يكون بالإمكان تفكيك اللوغوس المتمركز داخل التراث الثقافى الغربى . إن الكتابة ليست علامة خاصة لعلامة أخرى ورغم ذلك فإن كل علامة هى فى حقيقة الأمر علامة ترتبط بعلامة أخرى – كما يؤكد ذلك «دريدا» ، وهذا الخاصية الأساسية تؤدى إلى ملاحظة أن كل علامة لابد وأن تحيل إلى علامة أخرى لأن كل عنصر سواء كان صوتا أو كتابة يتشكل ويرتبط ويحيل بالتالى إلى أثر Trace ذى صلة وثيقة بعناصر أخرى.

وأخيراً فإن لسانيات «دى سوسور» يمكن أن تكون محل إعجاب كما يمكن أن تكون منطلقا لانتقادات عديدة ، لكنها تظل فى كل الأحوال محطة منهجية أساسية بالنسبة للدرس الفلسفى المعاصر لأنه من غير الممكن أن يتواصل الإبداع الفلسفى دون أن تكون له القدرة على تمثل واستيعاب مختلف الانجازات التى حققتها مختلف العلوم وخاصة علم اللغة الحديث (اللسانيات) الذى وصف بأنه يمثل بالنسبة للعلوم الإنسانية ما تمثله الرياضيات بالنسبة للعلوم الدقيقة .

إن المفاهيم المنهجية للسانيات سمحت للخطاب الفلسفى أن يلامس تخوم محيطه

---

(17) J. DERRIDA: De la Grammatologie - coll: "Critique" Ed: de minuit - Paris 1967 p 50.

(18) Ibid., p. 65.

المعرفى وأن يتأمل لغته وأساليب بلورته لأفكاره وفرضياته النظرية، ومكنته من القيام بالتصريح بمعطيات كانت أسيرة من قبل لما هو ضمنى وغامض ، وأصبح الغموض ذاته أكثر سلاسة وجمالا بعد أن استطاعت لغة الفيلسوف المعاصر أن تحرر الفلسفة من انغلاقها ونرجسيتها ، لتجعلها أكثر قدرة على إنجاز تفاعلها الخلاق مع محيطها المعرفى الذى تغيرت معطياته وتشعبت مواضيعه مع حلول السنوات الأولى من القرن العشرين ؛ وأصبح بذلك المفهوم الفلسفى يشكل امتدادا واعيا وإبداعيا للعلامة اللغوية، حيث تمكن من استحضار وتمثل الدوال والمدلولات فى كثافتها وتجريديتها وفى قدرتها على بلورة المعانى المختلفة والممكنة، ليكون بذلك وعيه بعناصر هويته أكثر وضوحا وليجنب نفسه مأساة الوقوع فى شراك أى تماه قاتل .